إن القرآن منهج حياة، متوفرة فيه نواميس البشرية في كافة أحوالها وأطوارها يعالج النفس المفردة، والأفراد المتشابكة، والمجتمعات الشائكة المتعاركة، كل ذلك بالقوانين الملائمة للفطرة، والواقع، ومتطلبات الحياة الراقية، يعالجها كلها علاجاً عاجلاً وآجلاً، متناسق الخطوات في كافة الجهات، في الوقت الواحد، فلا يغيب عن حسابه احتمالة من الاحتمالات، ولا حالة من الحالات الكثيرة المتشابكة، لأن مشرّع هذه القوانين هو خالق الفِطَر والكائنات.

وأما النظم غير الإلهية فهي على قصورها الذاتي، متأثرة بملابسات الحياة، وقاصرة عن الحيطة بجميع الاحتمالات، فقد تعالج مشكلة فردية وتخترق مشكلة اجتماعية أم فردية أخرى.

ومهما ادعى المدعون أن في القرآن تناقضات واختلافات فهي تظهر بعد التدبر في آياته أنها ملائمات متوافقات، ولحد الآن ما ثبت أي اختلاف أو غلطة لفظية فضلاً عما سواها، رغم ما يوجد في العهدين آلاف الأغلاط والمناقضات، مما تؤكد أن التوراة والإنجيل الحاليين تأثرا بكثير من الخرافات والأساطير[1].

فمن المستحيل عقلياً وواقعياً كون القرآن من عند غير الله، وطابع الربانية ظاهر في مظاهر عدم الاختلاف فيه: آياته مع بعض لفظياً ومعنوياً، ومع الواقع الكوني والتطلّب الفطري والعقلي والفكري، ومع الحاجيات الحيوية التي يعيشها الإنسان ايّاً كان! لذلك ترى جملاته تسمّت بآيات ﴿تِلْكَ

(١) يقول المسيحي الفاضل «يا ركز»: إن في الكتب المقدسة ثلاثين ألف غلط، والقسيس «ميل» و«كريستاج» ينهيانه إلى نيف ومائة ألف غلط، و«شولز» أن أغلاطها لا تحصى، وفي دائرة المعارف البريطانية والفرنسية أنها زهاء مليون غلط وكما يعترف بهذه الأغلاط والاختلافات في الكتب المقدسة كثيرون مثل: اكهارن - كيسر - هيس - ديوت - ويز - فرش راجع كتابنا: المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية.

﴿ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[١] تدليلاً أنها كلها تحمل سمات إلهية، وبصمات ربوبية، مكتوبة بقلم الوحي الأعلى، خارجة عن وصمات غير الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[٢].

٣ - بعلم الغيب ومطلق العلم:

نجد بطيّات كثير من آياته البينات تحديات بعلم الغيب، ومطلق العلم، اللذين لا يحصلان بالوسائل غير الإلهية، اللهم إلّا بالوحي.

إنه يتحدى بالعلم جملة: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٣] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[٤]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٥]. وكما يتحدى بالعلم تفصيلاً، ونموذجاً واحداً من تحدي التفصيل: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[٦] حيث تذكرنا بملاحم علمية غيبية ثلاث:

١ - إن في السماوات دواباً كما في الأرض: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ ولم يصل العلم - الغازي للفضاء - حتى الآن إلى التأكد من وجود جوّ للحياة أو نباتات في بعض الكرات، فضلاً عن دواب هناك كما في الأرض!.

٢ - ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ مما تبرهن بـ«هم» وهي لذوي العقول، إن من دواب السماوات ذوي العقول كما للأرض، مهما لم نعرف أسماءهم وسماتهم، كيف ونحن نجهل وجود أيّة حياة في الكرات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

٣ - إن عقلاء الأرض والسماوات - وعلّ سائر دوابهما أيضاً - سوف يجتمعان حيث الجمع هنا: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ لا يعني يوم الجمع وإن شمله فإنه الجمع بعد البث، فكما الله بثهما فيهما بعد خلقهما، كذلك هو جامعهما «إذا يشاء»: في مستقبل نجهله! -.

وهل المواكب العلمية الغازية للفضاء وصلت حتى الآن إلى زاوية من هذا المثلث الغيب البارع الذي تحمله آية واحدة من القرآن؟!.

وسوف تمر عليك المئات المئات من هذه الآيات العلمية، وقتية أو زمنية أم ماذا، بطيات آياتها، التي تحمل فيما تحمل: وحيها - ونبوة نبيها - وصدق أنبائها واقعياً، كما وسائر الآيات تحمل الأوليين دوماً، كما وتحمل الثالثة لمن أمعن.

وأنا كطالب صغير من طلاب علوم القرآن أتحدى جميع العالمين بما يتحداهم القرآن أن يأتوا بحديث مثله، وإن في سورة أو آية كاملة الدلالة، أو أن يأتوا منه ما يعارض العقل والفطرة أو قانوناً علمياً ثابتاً أو أياً من الثابتات آفاقية أو أنفسية.. أرضية أو سماوية..

وأنا على يقين أنهم «لن يفعلوا» كما ﴿لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] تظاهراً في أي حقل من حقوله لفظية ومعنوية، ولو كان لبان ممن يجدّون السير في معارضته، ويتواكبون في مخالفته.

لذلك تجد القرآن يعتبر نفسه المعجزة الوحيدة الخالدة الكافية، محلقاً على كافة صنوف المعجزات في كافة النبوات، فإنها كانت كلها وقتية عابرة، والقرآن زمنية شاملة تبقى ما بقي الدهر، زاهرة مشرقة في رحاب تقدم العقل والعلم أكثر وأكثر، وعلى حدّ تعبير تلميذ الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ابن عباس: «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن»!

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

ويا لها من معجزة تمشي مع الزمن إماماً أمام العقل والعلم يقودهما إلى أعماق الغيب ليهدي أتباعه للتي هي أقوم!

فطالما طالبوا هذا النبي أن يأتي بما أوتي رسل الله، رغم ذلك تجده دوماً يوجههم بالقرآن لأنه أدل وأفضل مما أوتوا، وفيه الكفاية حجة للعقل والعلم دون الحس والبصر فقط، كما في الآيات المحسوسة من ذي قبل، التي تعودوا بها طوال الرسالات، ثم فوجئوا بآية وحيدة منقطعة النظير هي القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]: فشهادة الله في كتابه النازل ويتلى عليهم كافية، وأكفى من شهادته في الآيات الحسية العابرة التي تحدّ بحدود رسالاتها، ولكن هذه الرسالة الأخيرة لا حدَّ لها حتى يكتفى فيها بآيات محدودة.

ترى لو أن محمداً أُوتي ما أُوتي رسل الله من آيات وقتية مع رسالته الخالدة فكيف كان بالإمكان أن يؤمن به العالمون بعد موته وانقضاء معجزاته، وكما لا يمكن عقلياً الإيمان بالرسالات الماضية، لا على ضوء كتاباتها إذ معجزة فيها، ولا معجزاتها التي ماتت بموت أنبيائها، وغبرت بما قبروا، اللّهم إلّا بما يشهد القرآن المعجز بذاته، بآياته وبيناته!.

فعلى المرسل إليهم أن يطالبوا رسولهم بآية تدل، لا كما يهوون فـ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[2] ولكنما المبطلون كانوا ولا

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٠ - ٥٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

يزالون يطالبون صاحب هذه الرسالة بمثل ما أوتى رسل الله من قبل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ . . .﴾(١) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾(٢).

فالآيات الدالة على النبوّات، منها آيات قد تكذَّب بتهمة السحر لأنها بصرية، ولكنما القرآن آية بصيرة: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ﴾(٣) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(٤) (٥) آيات تخويفية وقتية قد يكذّب بها، لذلك بدلناها بآية عقلية علمية زمنية لا تقبل التكذيب إلّا ممن سامح عن عقله أو علمه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة القصص، الآيتان: ٤٨، ٤٩.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.
(٥) يذكر من الأسباب في عدم نزول آيات تخويفية عينية في الآيات التالية: السورة ٦: ٤ - ٢٥ - ٣٥ - ٣٧ - ١٠٩ - ١٢٤ و٧: ١٣٢ - ١٤٦ - ٢٠٣ و١٠: ٢٠ - ٩٧ - ١٠١ و١٣: ٧ - ٢٧ - ٣٨ و١٦: ١٠١ و٢٠: ١٣٣ و٢١: ٥ و٢٦: ١٥٤ و٢٩: ٥٠ و٣٠: ٥٨ و٣٦: ٤٦ و٣٧: ١٤ و٤٠: ٧٨ و٤٣: ٤٨ و٥٤: ٢.
ومنها ما تذكر سبباً آخر في عدم نزول هذه الآيات وهو فوضى اتباع الناس فيما يهوونه من آيات ثم يكذبونها.
ثم وآيات تثبت نزول آيات النبوة على محمد ﷺ هي ٣٠: ٥٨ و٦: ١٢٤ و٣٦: ٤٦ و٣٧: ١٤ و٥٤: ٢.
وحاصل جمع الآيات حول آيات النبوة المحمدية أنها تركز على آية القرآن الخالدة كأصل ثم تذكر بصورة عامة أو خاصة آيات هامشية لهذه الرسالة، وتنفي أصالة الآيات الحسية الوقتية لها ولا سيما التي كذب بها الأولون، والتي يهوونها ولا يصدقون.

فهل بالإمكان تكذيب آية القرآن ومعجزته وهي تعيش الطول التأريخي والعرض الجغرافي دون فناء وبلاء، فإنما تزداد على تقدم العلم نوراً وبهوراً!

لذلك لا ترى لصاحب هذه الرسالة آيات معجزات كمثل التي لرسل الله، اللهم إلّا هامشية عابرة لم تؤصل، ولذلك لم تسجّل في آية القرآن إلّا شذر كشق القمر والمعراج، ولهما ما لهما من ميزّات على سائر الآيات البصرية كما نفصلها في طيات آياتها.

وإذا كانت سائر الآيات تدل على نبوات أصحابها وما يدعون من وحي السماء شهادات منفصلة عن تلكم النبوات، فآية القرآن شهادة ذاتية على وحيها ونبوة نبيِّها دون انفصال، إذاً فهي أدلّ وأقوى من سائر الآيات، دلالة ذاتية وخلوداً ضارباً في أعماق الزمن.

فلم يكن المرسل إليهم في سائر النبوات يطالبون أصحابها بتلكم الآيات إلّا تدليلاً لإثبات نبواتهم، دلالة النظير على نظيره، حيث الوحي آية غير ملموسة فلتدل عليه آية نظيرة لها في كونها فعل الله مهما كانت - ولا بد - ملموسة.

ولكنما القرآن آية هذه النبوة، وهي نفس الوحي النبوة، آية تقرأ وتسمع وتفهم، تدل بنفسها على آية الوحي النبوة، وعلى صدق مدعيها، كما تتوسط بين النبوة والرسالة حجة تثبتهما: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾[1] حيث يستدل بحكمة القرآن في صيغة القسم - التي كلها في القرآن برهان - يستدل بها لإثبات دعوى سابقة: ﴿يسٓ﴾ يا سامعاً للوحي! وهو النبوة - وأخرى لاحقة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: الرسالة التي هي بعد النبوة النبوءَة[2].

(١) سورة يس، الآيات: ١ - ٣.

(٢) حيث النبوءة وهي خبر الوحي تتقدم على الرسالة، ولكنما النبوة وهي رفعة الرسالة هي بعد الرسالة كما نبحث عنها في آياتها، ونبحث عن الوحي والنبوة والرسالة مفصلة في مناسباتها.

إذاً فالقول: إن المعجزات إنما هي للعوام الذين عقولهم في عيونهم، دون الخواص المميزين الحق عن الباطل، إنه هراء - حيث المعجزات إنما تثبت النبوات، لا الأحكام الرسالية التي ياتي بها رسل الله، إذ لا صلة بينها وبين تلكم الأحكام، وإنما هي آيات النبوات: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

فتراها تعتبر هذه الآيات المعجزات آية واحدة لوحدة الدلالة والاتجاه، وأخيراً إن هذه الآية هي آية الرسالة، وليست أصيلة كالقرآن، وإنما هي وسيلة لإثبات نبوة المسيح، فما يقول - إذاً - عن الله حق لا مرية فيه، دون أن تثبت أحكاماً مسيحية، إذ لا صلة بينهما.

ثم آية القرآن القاطعة الخالدة، الذاتية، لا تكتفي بنفسها في إثبات ما يحملها من أحكام عقلية أم ماذا - اللّهم إلّا كونها وحياً - فتراها إذ تستعرض مواضيع أحكامية أم سواها، هي بحاجة إلى براهين، تراها مصحوبة ببراهين تترى كما تناسبها وتثبتها بما لا فواق لها، وكما تراها في طيات آياتها هنا في «الفرقان»!

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾:

إنه ليس الكافرون كلهم وقود النار وإن كانوا كلّهم بها يُضرمون وفيها يتّقدون حيث الوَقود الصِّلاء هو الذي تتقد به النار: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾[2] وهؤلاء الناس كفار

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

خصوص كالمكذبين بالله ورسالاته لا كل من يستحقون النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا . . .﴿١١﴾﴾[1] كما وتشهد آيات صلي الجحيم: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾[2] إذاً فصليها مخصُوص بالأشقى، طالما الشقي يدخلها، ولو كان صليهما - فقط - دخولها لعمّ الشقي والأشقى دون اختصاص بالأشقى!

فالصّلي هو الإيقاد كما الاصطلاء استيقاد: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[3] وكما الصّلاء هي الوقود.

وترى ما هي الحجارة القرينة للناس الوقود الصّلاء؟ علّها الأصنام الأحجار التي كانوا يعبدونها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[4] ولكنما الأصنام لا تختص بالمصنوعة من الأحجار، فعلّها هي وحجارة أخرى تصلح للصِّلاء كأقوى الوقود وأبقاها مثل «حجرة الكبريت»[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الليل، الآيات: ١٤ - ١٦.
(٣) سورة النمل، الآية: ٧.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٥) تفسير البرهان ١: ٦٩ عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن جدِّه علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل حول تفسير هذه الآيات «وقودها وحطبها الناس والحجارة حجارة الكبريت أشد الأشياء حراً...».
وفي الدر المنثور ١: ٣٦ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أوقدت النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة، وفيه أيضاً عن أنس عنه صلى الله عليه وآله مثله بإضافة «لا يطفأ لهبها».

وتُرى إذا كان الناس من وَقود النار وهم بعدُ لم يدخلوها، فكيف إذاً ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؟ علّ الوقود الحجارة - غير أصنامها - يكفي الآن لإعداد النار، أم أن الإعداد حالة ترقُّب لا فعلية له، فإنما يضرم النار بمختلف وَقودها يوم يدخلونها.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

بشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وترى أليس عمل الصالحات من الإيمان أو لزامه فكيف يقابله؟ علّه لأن الإيمان في الأكثر ينحو منحى القلب ولا يستحق دخول الجنات إلّا من أضاف عمل الإيمان إلى عقيدة الإيمان.

ثم الجنات هي البساتين الملتفة الأشجار كسقف أخضر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لا تحت الأرض، وإنما تحت جنات الأشجار التي تجنّ ما تحتها من أرض[1]، فالجنات هي مظلّات شجرية، توحي بجمعيتها أنها مقسّمة بين أهليها، لكلّ جنة فللكلّ جنات.

وترى ما ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؟ هل هي الأرزاق الدنيوية التي رُزقوها قبل الجنة ففيها يؤتون أشباهها؟ ولا فضل لما في الدنيا حتى تكون أشباهها في الجنة فضلاً لهم فيها! و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لم يرزقوا من الدنيا إلّا قليلاً، إذ اغتصبها أكثرها أهل الدنيا، فهل يرزقون في الجنة - فقط - أشباه هذه القلة القليلة!

(١) الدر المنثور ١: ٣٦ - أخرج جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك.
وفيه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض حافتاه خيام اللؤلؤ طينها المسك الأذفر.

أم هي من التي رزقوها في الجنة قبل هذا الرزق؟ و«كلّما» تشمل مع سائر المرات المرة الأولى وليس قبلها جنة أو رزقها!.

علّ «من قبل» هي الأرزاق التي رزقوها في جنة البرزخ، أم هي الأعمال التي رزقوها يوم الدنيا فيؤتون في الأخرى ثمراتها ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[١] ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ تشابه الأعمال وثمراتها، وفيها مزيد بفضل الله.

أم إنها ما رزقوا من قبل في الدنيا مهما حرموا عنها فيها، فالحارمون هنا محرومون هناك، والمؤمنون المحرومون مرزوقون هناك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٢] بعد ما كانت خالطة يوم الدنيا، وهم في الأكثر كانوا محرومين عنها، فلما وجدوا هناك من كلّ الثمرات فرحوا قائلين: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وحرمناه هناك.

وهم من هذا المثلث من الرزق السابق، يجدون له متشابهاً: للذي رزقوه من قبل من حيث الشاكلة لرزق الدنيا، وفي مرتبة أعلى عن جنة البرزخ، جزاء وفاقاً لما عملوها من صالحات وهناك مزيد.

فرزق الجنة والدنيا لا يتشابهان إلّا في الاسم وفي أصل المنظر، وأما في نضرته وطعومته فـ«لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وعلّ «في طعام العرس مثقال من ريح الجنة»[٣].

والرسول ﷺ يصف الجنة ببعض شروطها وأشراطها: «من خالف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة،

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) الدر المنثور: ١: ٣٨ - أخرجه الديلمي عن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . .